الكاتب: **د. عادل النفاتي**
كلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس.

عنوان المقال: **دور الجغرافيا المغاربية في تصحيح معارف أوروبا حول إفريقيا: كتاب "وصف إفريقيا" للحسن الوزان الفاسي (Léon l'Africain) أنموذجا**

البريد الالكتروني: adel.nafeti@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/09/07 **تاريخ القبول:** 2019/12/12 **تاريخ النشر:** 2020/03/31

دور الجغرافيا المغاربية في تصحيح معارف أوروبا حول إفريقيا: كتاب "وصف إفريقيا" للحسن الوزان الفاسي (Léon l'Africain) أنموذجا

The role of Maghreb geography in adjusting Europe's knowledge about Africa:"The description of Africa" book written by Hassan Wazzan al Fessi a model.

الملخص بالعربية:

صدر كتاب "وصف افريقيا" للحسن الوزان الفاسي في منتصف القرن السادس عشر بمدينة روما، والذي مثل آنذاك نقطة فارقة في تاريخ المعرفة العالمة الأوروبية. حيث حرر ذلك الأثر افريقيا من عُقال تمثلات أوروبا الكلاسيكية، التي صورتها كقارة جامعة لمتناقضات طبيعية وبشرية. فهي قطعة من جهنم بسبب اشتداد الحرّ فيها، وحاضنة لمجوعات بشرية لم تبلغ مرحلة الآدمية بعد، ذلك ما فسر حسب ظنهم عدم تشكل حضارات عريقة كالتي ظهرت في آسيا وأوروبا. ولقد اخذت تلك التمثلات في التبدّل حال اطلاع الأوروبيين على مدونة الحسن الوزان الفاسي الذي بيّن استنادا إلى جملة من المصادر العربية، ومن خلال خبرته بأخبار القارة تهافت التمثلات الأوروبية، مبرزا رسوخ الظاهرة البشرية بإفريقيا، دارسا لمختلف أقاليمها ومواردها وخصائصها الطبيعية والثقافة المادية واللامادية، ما جعل الأوروبيين يعيدون النظر في صورة افريقيا والانكباب على دراستها من زاوية جديدة.

كلمات مفتاحية: أدب الرحلة – افريقيا – البحر الأبيض المتوسط – الثقافة - الوصف.

Abstract :

"The description of Africa" book was published in the middle of the sixteen century in Rome; it represented a milestone in the history of European scholarly knowledge since that book contributed in liberating Africa from classic European representations that depicted it as continent full of natural and human contradictions. Africa was considered as a piece of hell because of its extreme heat and its incubation of groups of human beings that had not yet reached the stage of humanism.

In fact this is what explained why no genuine civilizations were as it happened in Asia and Europe.

The European representations had gradually changed since the European writers and geographers were exposed to al Hassan el Wazzan el Fessi' s book, in which revealed, based on a number of Arab sources and his own knowledge of the continent' s news. The unjustified European representations highlighting the rooted human phenomenon in Africa and studying its different regions, resources, cultural, natural, material and human characteristics. All this urged the Europeans to adjust the image of Africa and restudy it from a new angle.

Key words: travel literature – Africa – the Mediterranean Sea – the culture – the description.

مقدمة:

لم تكن إفريقيا المتاخمة لأوروبا غائبة عن اهتماماتها وعن علومها في كل مراحل تاريخها، فقد مثلت دوما احدى شواغلها المعرفية وبخاصة الجغرافية منذ بدايات تشكّل الرصيد المعرفي الأوروبي القديم. وارتقت المعطيات الجغرافية والبشرية الواردة فيه حول إفريقيا إلى مكانة الحقائق الثابتة، فنُظر إليها بكثير من الاحترام والتبجيل استمر لقرون

طويلة. فبدا المجال الإفريقي فيها مجالا طرفيا عنيفا، قاحلا ومنغلقا، يصعب الولوج إليه بسبب ارتفاع حرارة مناخاته وصحاريه الممتدة وغلبة الجدب على الخصب. واستمر حضور تلك التمثلات في الآداب اليونانية وتسرب البعض منها إلى مؤلفات الرحلة والجغرافيا العربيتين إلى حين صدور كتاب "وصف إفريقيا"[1] للجغرافي الغرناطي الأصل، المغربي المنشأ والتكوين: الحسن بن محمد الوزان الفاسي[2] أو ليون الإفريقي Léon l'Africain كما لُقّب في أوروبا، حيث أحدث مؤلفه حال صدوره في منتصف القرن السادس عشر ضجة كبرى في الأوساط الأوروبية، وشدّ انتباه العديدين من المهتمين بالشأن الجغرافي عامة والشأن الإفريقي خاصة.

وتزامن ظهور مؤلف الحسن الوزان الفاسي مع سياقات أوروبية مخصوصة، تميزت بتشوّف تلك القارة إلى معرفة بقية أجزاء العالم بطريقة جديدة ومغايرة لما تم توارثه من صور كلاسيكية قديمة، بعد أن بيّنت الكشوفات الحديثة محدوديتها وضبابيتها. فظهر اتجاه أوروبي قوي مقبل على تنويع مصادر المعرفة ومنفتح على دراسة المصادر الجغرافية والتاريخية غير الأوروبية وخصوصا منها المغاربية، بعد أن أثبت المغاربة نبوغهم في مجال الجغرافيا الوصفية من خلال مدوناتهم العديدة في مجالي الرحلة والجغرافيا. ورفعت الجغرافيا الأوروبية الحديثة عن نفسها حرج تقديس مؤلفات الجغرافيا الإغريقية والرومانية، واقتنع المهتمون بها والفاعلون فيها بضرورة مقارنة المعطيات التي تضمنتها مع مصادر أخرى مختلفة، خاصة وأن المعلومات التي كانت بحوزة الأوروبيين عن إفريقيا قبل صدور كتاب الوزان الفاسي لم تتعدّ الأجزاء الشمالية والساحلية، وهي متسمة بغلبة الطابع الانطباعي على الطابع العلمي الموضوعي. وما عدا ذلك فإن بقية مكونات الصورة عن دواخل القارة كانت غائمة اختلط فيها الواقعي مع الخيالي، والحقيقي مع الأسطوري.

لقد استفاد الحسن الوزان الفاسي - وهو بإيطاليا على غرار المبدعين الأوروبيين - من ظرفية عصر النهضة الأوروبي الذي وفر مناخات معرفية ضرورية لتدوين مؤلف جغرافي يعنى بأحوال إفريقيا بمنأى عن كل ضغوطات قد يتعرض إليها لو كان مكان التدوين مكانا آخر. فقد كان الكاتب على دراية بمنافع النهضة الأوروبية التي أحسن توظيفها وملاءمتها مع مكتسباته المعرفية ومع تجاربه الذاتية ومغامراته في الفضاء الإفريقي، ما أكسب أثره "وصف إفريقيا" قيمة معرفية قصوى أهّلته لأن يُترجم إلى عدّة لغات، ومن ثمة شيوعه في أوساط الكتّاب

والمكتبات الأوروبية والذي حفّز على معاودة الاهتمام بموضوع إفريقيا والكتابة فيه من قبل الأوروبيين أنفسهم ولكن من وجهة نظر مخالفة لما تم توارثه.

ولدراسة تطوّر مدلول إفريقيا في مؤلفات الكتّاب الأوروبيين القدامى إلى حين صدور مؤلف "وصف افريقيا" وأثره في المعرفة العالمة الأوروبية الكلاسيكية، قسمنا ورقتنا إلى قسمين: تضمن القسم الأول مكانة إفريقيا في الموروث الجغرافي الكلاسيكي الإغريقي والروماني بالوقوف عند منتقيات من مؤلفات الجغرافيين والرحّالة الإغريق والرومان في الفترتين القديمة والوسيطة. ثم تطرقنا في القسم الثاني إلى مظاهر تجديد المعرفة الجغرافية حول إفريقيا في مؤلف "وصف إفريقيا" مع الوقوف عند مضامينه الطبيعية والبشرية وأهم المحطات التاريخية والسمات الثقافية للشعوب الإفريقية.

I - صورة إفريقيا في الموروث الجغرافي الإغريقي والروماني:

تطلّع الفكر الفلسفي الإغريقي الشغوف بالملاحظة والاستفهام منذ القرن السادس ق.م، إلى استيعاب وتدبّر حصاد مغامرات بعض المغامرين والرحّالة[3]، وإلى كشف النقاب وتوسيع دائرة المعرفة الجغرافية في الكثير من أنحاء الأرض حول بلاد الإغريق. فكانت وجهتهم نحو أوطان الحضارات القديمة في آسيا وإفريقيا، ودونوا في شأنها عديد المؤلفات الواصفة لطبيعتها ولطبائع الأقوام وأهوائهم وعوائدهم. لذلك حفلت السرديات الإغريقية وفيما بعد الرومانية بشروح متنوعة لما شاهده المستكشفون الأوروبيون عامة وما عاشوه في تلك البقاع الغنيّة بمتناقضاتها[4]. وفي خضم تلك السرديات مثلت مصر الاستثناء الإفريقي، إذ حظيت - على خلاف بقية الأقاليم الأخرى - بمكانة مميزة، لا لانتمائها الجغرافي وموقعها المطل على المتوسط مهد تكوّن الحضارات القديمة وحسب، بل أيضا لاشعاعها الحضاري وعراقته، وخصوبة أراضيها، وسيلان نيلها وسخائه، و"قداسة مياهه"، التي بلغ صداها ضفاف المتوسط الشمالية عندما زعمت المسيحية أن منابع الأنهار الكبرى تنطلق من الفردوس[5].

1 - الجغرافيا الطبيعية لإفريقيا: إفريقيا أرض المتناقضات

كانت المعلومات المتداولة ضمن المؤلفات الجغرافية الكلاسيكية حول الطبيعة الإفريقية شحيحة[6]، بدعوى هامشية المجال: سكانا وطبيعة، بحيث لا يستحقان اهتماما بالغا. ما جعل إفريقيا دون القارتين الأخريين مكانة. فقد أبدى هيرودوت[7] Hérodote تعجبه

من "الناس الذين يوزعون الأرض إلى ثلاثة أقسام: ليبيا وآسيا وأوروبا، ويدققون حدودها، والحال أن الاختلافات بين هذه الأقسام الثلاثة ليست صغيرة. فمن ناحية الطول فأوروبا تعادل القارتين معا، لكن من ناحية العرض، فيبدو لي أنه لا يجب أن نقارن بينهما[8]". ولقد دعم المؤرخ ايتكوس استير[9] Ethicus Ister تعجب هيرودوت الذي بيّن فيه أنه من الخطأ اعتبار إفريقيا قارة منفصلة بذاتها شأنها شأن آسيا وأوروبا، بل هي امتداد طبيعي لجنوب أوروبا، لا تشكل وحدة طبيعية أو بشرية مستقلة. فأراضيها فقيرة ورديئة ومناخها جاف ومجالاتها مجهولة وكل مجهول خطير[10]، على عكس أوروبا وآسيا المشهورتين بحضارتهما وإنجابهما لأبطال ورموز خلدت اسم القارتين في التاريخ[11].

قسمت الجغرافيا الأوروبية القديمة المجال الإفريقي إلى قسمين: حوى القسم الأول مجالا شاسعا أطلق عليه الكتّاب الإغريق مصطلح "أثيوبيا"، وقد شمل كل المجالات الجغرافية الواقعة جنوب مصر. ولكن أحالت مفردة "الأثيوبيين" على عديد المعاني، وأثارت التباسا بين المؤرخين والجغرافيين القدامى. فالبنسبة إلى هيرودوت فإن الأثيوبيين هم مجموعات بشرية ذات بشرة سوداء من جراء أشعة الشمس المحرقة التي برر بها الكاتب سواد بشرة السكان المحليين[12]، وصنّفهم إلى: أثيوبي الشرق ذوي الشعر الناعم، وأثيوبي الغرب ذوي الشعر. وهو تصنيف يشبه إلى حدّ ما تصنيف بلينوس الذي أكد أن نهر النيل هو الحدّ الفاصل بين أثيوبيا الشرقية وأثيوبيا الغربية. أما بطليموس Ptolémée[13] فقد قسم أثيوبيا إلى قسمين: أثيوبيا الشمالية الواقعة جنوب مصر، وعرفت باسم بلاد النوبة Nubie، وأثيوبيا الجنوبية المعروفة ببلاد الحبشة Abyssinie وهي مجالات ظلت مجهولة لم تذكر الجغرافيا القديمة عنها معطيات كبرى.

ومثلما أحال موقع اثيوبيا ومدلولها على خلافات في الآراء وعدم اتفاق بين الجغرافيين القدامى، فقد أحالت تلك المصادر ذاتها على أحكام متباينة حول ذلك الإقليم. فبالنسبة إلى سترابون Strabon فإن أثيوبيا بلد قاحل وفقير تسكنه مجموعات بشرية بائسة، وحسب بلينوس Pline L'Ancien فإن أثيوبيا مأهولة بكائنات أشبه بالوحوش. ورجح كتاب الفترة الوسيطة مثل بوميوس Boemus[14] ومانستر Munster[15] وجود منطقتين من العالم سميتا بأثيوبيا: واحدة بإفريقيا وأخرى بآسيا، وهو ما يحيلنا على التداخل في أذهان الكاتبين بين الهند بآسيا وأثيوبيا بإفريقيا.

ووسمت المصادر نفسها المجال الجغرافي الافريقي الثاني بليبيا، وهو مجال شاسع امتد من رأس صوليوس Soloeis على السواحل الشمالية المغربية المطلة على المحيط الأطلسي غربا إلى الصحراء المصرية شرقا. وفيه ظهرت مجموعات بشرية أمازيغية متنوعة من ذوي البشرة البيضاء أطلق عليهم تسمية ليبو Lebou أو لوبيين حسب زعم هيرودوت[16]. وعلى خلاف الإقليم الأول تبدو المعطيات الواردة في المصادر المذكورة حول ليبيا[17] أو بلاد الأمازيغ أكثر إسهابا، حيث فصّل بعضهم الحديث عن أقاليمها. فقد انفرد بطليموس بالحديث عن منطقة لوبيا الداخلية[18]، والتي قسّمها إلى ثلاث مقاطعات وهي: لوبيا القورينائية[19] Libye Cyrénaïque ولوبيا المارمريكية[20] Libye Marmarique ولوبيا. وحملت بداية الفترة الوسيطة مسميات جديدة، عندما استخدم ايتكوس Ethicus اسم طرابلس Tripolitaine في إشارة إلى حضور المدن الثلاث المشهورة[21]. وتم إفراد إقليم نوميديا[22] Numidie بحيز جغرافي مخصوص لم يكن محل إجماع الجغرافيين، ولم يتم ذكره في جميع المصادر المعروفة. أما بالنسبة إلى بقية المجال فقد قسم بين الولايتين الرومانيتين المشهورتين: موريطانيا الطنجية وموريطانيا القيصرية وفق ما أورده كل من بلينوس وبطليموس وصولان وكابيلا[23] Capella ومونستر Munster.

وعلى خلاف مصر المعروفة بانفتاحها على بقية حضارات العالم القديم حدّ التأثير فيها بفضل ما اكتسبته من رقيّ حضاري، فإن بقية مجالات إفريقيا وفق الرواية الاغريقية قد آثرت الانغلاق على ذاتها ورفضت التواصل مع محيطها وكأنها تخشى غزو الحضارات الأخرى الأقوى منها. فوجد قدماء الجغرافيين في ذلك الانغلاق خير مبرر لجهلهم بخاصيات تلك القارة إلى بدت لهم رافضة لاستقبال زوّارها. فقد استخدمت سلاح حرارة المناخ للاحتماء من فضول المستكشفين والرحّالة الطامحين في نقل مشاهداتهم إلى مواطنهم. فإفريقيا من وجهة نظر إغريقية هي قطعة من جهنم، بسبب وجود الجبال البركانية ووجود نهر يسمى الليتون Lethon الذي يشبه في تسميته نهر الليتي Léthé كنهر مستعر وفق الرواية المسيحية[24]. وساهمت الحيوانات البرّية في تقوية الستار الذي حجب إفريقيا عن العالم، فهي كائنات تهدد أمن جميع البشر الذين يقصدون القارة من الأجانب و من المحليين وفق ما ذهب إليه هيرودوت[25]. فإفريقيا أرض منطوية على ذاتها بسبب اختفائها وراء سلاسل جبلية عالية، ساندت مجهودات الصحراء والبحيرات والسباخ على إحكام الغلق وقطع الطريق أمام

الوافدين. واستطرد الكتّاب القدامى في ذكر مساوئ المجال الافريقي، فألمح مونستر إلى حيوية المجال، فهو متحرك غير مستقر مثلما هو الحال في خليج السرت، فرماله متحركة غير ثابتة بفعل حركة غير عادية للبحر، سرعان ما يتقدم لمسافات طويلة، وفي لمح البصر يتراجع لمسافات أطول، ويتغير عمقه بين يوم وآخر بسبب حركة الرياح والأمواج.

اتخذت إفريقيا في المصادر الإغريقية ملامح قارة المتناقضات والمتضادات العنيفة، فالقارة التي اتسمت بالجدب والقحولة والانغلاق وحرارة مناخها، وتحوي نقيض ذلك: مناطق خصبة ورطبة شبيهة بما وجد في الجنة. فالحصول على غلال طيبة المذاق حسب بلينوس في مرتفعات الأطلس لا يستحق عناء القيام بأشغال فلاحية مرهقة. ففي تلك الجبال تنبت ثمار تلقائية ذات نوعية حسنة. وتدعّم هذا الرأي في الفترة الوسيطة عندما تحدث ميلا عن احتواء إفريقيا لجزر من الذهب شبهها بجنة الوثنيين. ووصف المؤرخ جاك سينو Jaques Signot من جهته إقليم البيزسيوم[26] Byzacium على أنه جنة الأرض. وتحدث مونستر على وجود واحة خلابة بجوار معبد جوبيتار عمون في ليبيا بالقرب من سيرتا[27] Syrtes. عموما، ومن خلال ما تم عرضه من صور للجغرافيا الطبيعية كما وردت في المصادر الأوروبية القديمة، فإنه من اليسير تبيّن ضبابية معارفها وخلوها من الدقة العلمية، علاوة على اقتناع كتّابها بالإخلالات التي تضمنتها[28]. والتي فسرها هيرودوت باشتداد الحرّ وامتداد الصحاري، الذي أوقعه في سرد أخبار غير دقيقة أو مجانبة للواقع. كما أغفلت ذات المصادر الحديث عن دينامية الحركات البشرية والمبادلات التجارية بين الأقاليم، فبدت إفريقيا مجالا يجمع جزرا بشرية متفرقة تعيش منعزلة عن بعضها البعض، وهو تمثل سينفيه الوزان الفاسي في وصفه لإفريقيا.

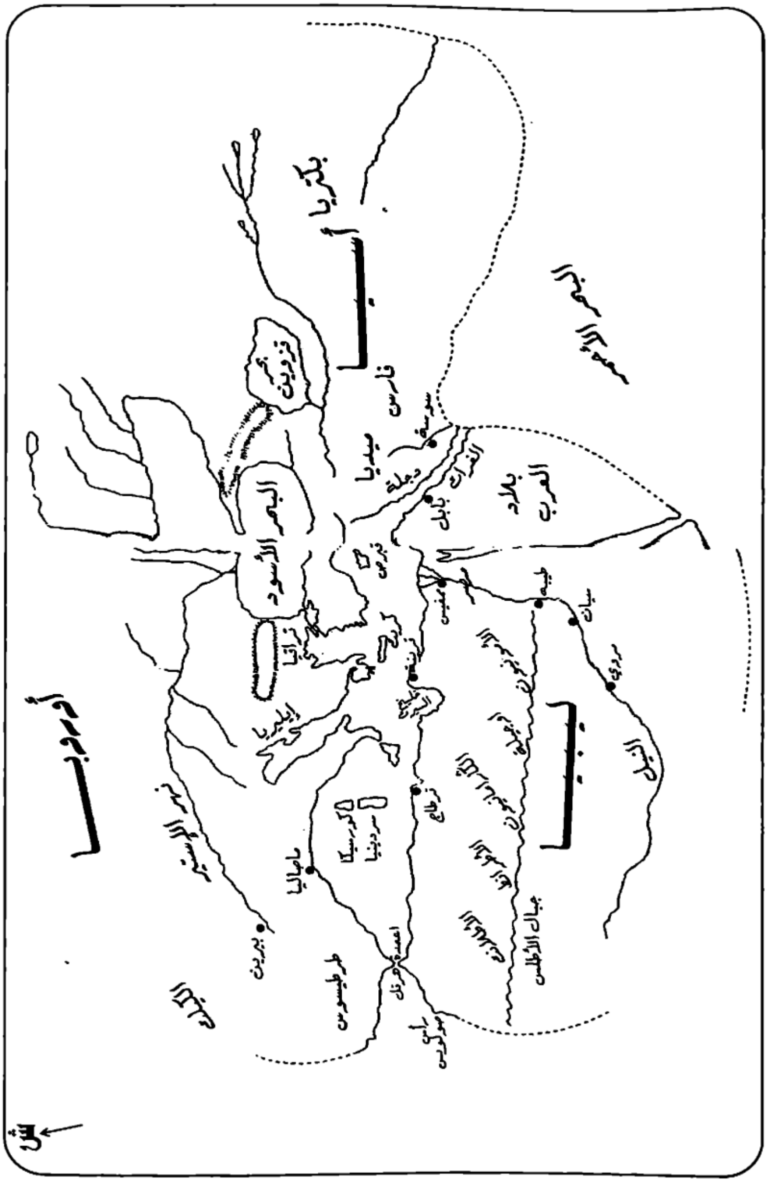

خريطة رقم 1 : العالم كما تصوره هيرودوت، عن (هيرودوت، ترجمة عبدالإله الملاح، أبو ظبي، 2001)

2 – **شعوب إفريقيا ليست كسائر شعوب العالم:** فصّل هيرودوت القول في المجموعات البشرية التي سكنت إفريقيا، وتبيّن له أنها مختلفة عن بقية شعوب العالم، نتيجة تميزها بعدة خصائص لا توجد عند نظرائها من سكان أوروبا وآسيا. ففي كتابه الرابع

من مؤلفه "التواريخ" ذكر الكاتب عديد المجموعات البشرية التي استوطنت إفريقيا ومنها: الغيليغام Les Giligames والأوشيز Les Auschises والأطلسيين Les Atlantes والبليميس Les Blemmyes والأجوليين Les Augiles والغامفاسانت les Gamphasantes والستريين Les Satyres والإيجبين les Aegypans واللوطوفاجيون les Lotophages وأسماء شعوب أخرى جمعت بينها غرابة بنيتها الجسدية التي لا تشبه بقية البشر. فقد ذهب الخيال بهيرودوت إلى رسم صور غير مألوفة لسكان إفريقيا التي زارها وزعم لقاء عدد من سكانها. "فالبليميس لهم عيون في صدورهم، والهيمنتوبود لهم سيقان لينة مثل الثعابين، ومن الناس من لهم رؤوس كلاب، أو لا رؤوس لهم. عيونهم في صدورهم على الأقل حسب ما يقوله عنهم الليبيون، والرجال متوحشون والنساء متوحشات"[29]. وقد سار الكاتب على ما سار عليه الكتّاب الآخرون في تبرير وجود تلك المخلوقات. وقد أرجعوها إلى هيمنة الجفاف، وندرة الأمطار، وقلة منابع المياه إلى درجة اجتماع الحيوانات والبشر على نفس النبع المائي، وهو ما جعلهما يتعايشان إلى حدّ لا يمكن فيه الفصل بينهما. ولقد دفع ذلك الجوار إلى حدوث ألفة غريبة بين الحيوانات والبشر بلغت مرحلة غير معقولة وغير مسبوقة في تاريخ الإنسانية، ما تسبب في حدوث تزاوج غير طبيعي بين صنفي الكائنات، وظهور مخلوقات مشوّهة في شكل وحوش. يشتغل أغلبها بالسحر والشعوذة، متخذين من المغارات والكهوف مساكن لهم ويقتاتون من أكل لحوم الثعابين والفيلة والنعام كتلك الكائنات التي كانت تعمر حسب ميلا منطقة برقة[30].

لقد ظلت الشعوب الإفريقية وفق الرواية الإغريقية القديمة تراوح المرحلة البدائية من التاريخ الإنساني. فلم تواكب النسق التطوري، ولم تؤسس لغة واضحة الحروف والمقاطع والمعاني، لتكون قادرة على تأمين تواصل سليم فيما بينها ومع محيطها الخارجي. فما استخدمته شعوب الغارامانيون Les Garamantes والسنوتيفليان Les Cynotéphaliens كلغة للتواصل هي مجرد غمغمات شبيهة بأصوات الخفافيش وفق رأي هيرودوت[31]. وتفتقد بعض القبائل الإفريقية الأخرى حسب ميلا Mela للأفواه مثل شعوب سكنة الكهوف Troglodytes[32]، وهو ما ألجأها إلى استخدام الإشارات.

كما عمت توصيفات عادات الأفارقة وسلوكاتهم الغريبة معظم المؤلفات الجغرافية القديمة، فبدت في معظمها مشينة تفتقد للقيم الإنسانية النبيلة. فقد استرعى المباح

الجنسي عند الأفارقة اهتمام هيرودوت الذي تحدث عن ميل نسائهن إلى البغاء العلني حتى وإن كانت الواحدة منهن في ليلة زفافها. فلم يكن في تلك المجتمعات أدنى انزعاج من وجود أطفال مجهولي النسب. فحياتهم الجنسية أشبه بعالم الحيوان وفق ما أورد الكاتب بقوله: "من عادات رجال الناسمونيين[33] أن يتخذ كل واحد منهم عددا كثيرا من الزوجات. وفي مجال العلاقات الجنسية، فقد كانت المرأة مشاعة عندهم مثل ما هو موجود لدى الماسجيت Massagètes[34]. وإذا ما أراد أحد منهم معاشرة امرأة فإنه يغرس عمودا أمام المكان الذي يوجد فيه اشارة إلى رغبته في امرأة تشاركه الفراش. وعندما يتزوج شخص من الناسمونيين لأول مرة، فمن عادات القوم إقامة حفل خاص بذلك يتعاقب خلاله الضيوف واحدا تلو الآخر على العروس، وبعد مضاجعتها يقدمون لها هدايا أتوا بها من دورهم[35]". ولقد أسهبت المؤلفات الجغرافية القديمة في إبراز عجيب عادات الأفارقة وغريبها، ومنها ما تعلق بكيفية ابرام العقود والمواثيق بينهم، فيعقدونها بتبادل الشرب من أيدي بعضهم بعضا، وإذا لم يجدوا شرابا سائلا فإنهم يلتقطون بعض التراب من الأرض ويسُفونه[36].

فمن خلال ما تقدم من أفكار، فإن آراء هيرودوت كغيره من كتاب الفترة القديمة كانت حاملة بدورها لمواقف مناهضة للأفارقة إلى حدّ التناقض، إذ ما حاجة شعوب لاتزال تعيش مرحلة الحياة الجنسية المشاعة والجماعية تنظيم علاقات اجتماعية وجنسية ضمن مؤسسة الزواج. ألا يحيل هذا التناقض على تلك النظرة الدونية التي حملتها الحضارة الإغريقية عن باقي الشعوب التي تعيش خارج الوعاء الحضاري الإغريقي؟

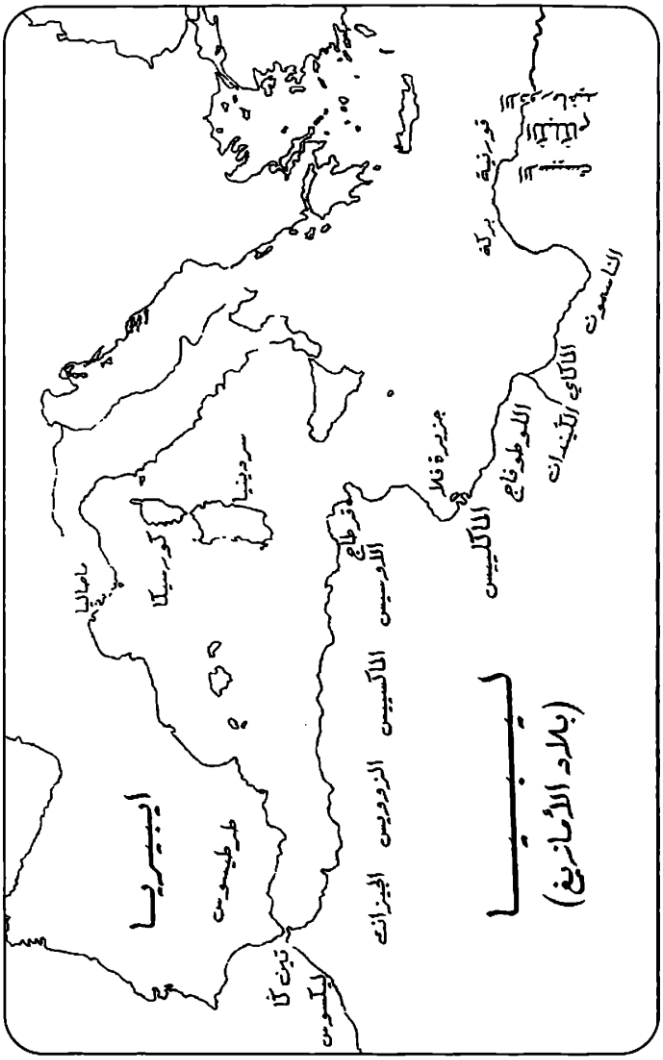

خريطة رقم 2 : توطين المجموعات البشرية الأمازيغية حسب هيرودوت (ورد بأحاديث هيرودوت عن الليبيين، ص 136) ا

خريطة رقم 4: توطين المجموعات البشرية الأمازيغية حسب هيرودوت.

وفي نهاية هذا العرض، وفي سعينا لفهم أسس الصورة التي رسمها التراث الجغرافي الإغريقي والروماني في فترتيه القديمة والوسيطة إلى حدود القرن السادس عشر عن إفريقيا، نلحظ أنها صورة هلامية مليئة بالتشويهات والتوصيفات التي تتجاوز المعقول العلمي، ونعزو

ذلك إلى طبيعة المصادر التي استندت في تلفيق صورها إلى رحلات محدودة داخل المجالات الإفريقية والتي عرقلت مسيرتها جملة من التحديات الصعبة في البر والبحر. حيث واجه المستكشفون والرحّالة التحدي الصحراوي، الذي مثل سدا وحاجزا مانعا لتوغلهم في اتجاه دواخل القارة. وفي ظلّ غياب معطيات دقيقة وعوز اخباري ومتون قادرة على تأمين سرد تاريخي مسترسل ومترابط، لجأ المؤرخون والجغرافيون الإغريق ومن بعدهم الرومان إلى سد تلك الفجوات والثغرات بتركيب تمثلات من محض خيالهم أو من نسج خيال ممن استمعوا إليهم لتكون مكونات الصورة متكاملة وذات معنى، مؤسسة بذلك ما سمي بالتاريخ الأسطوري L'histoire mythique. ولكن أخذت الوقائع والمعطيات والأنساق الثقافية الأوروبية بالتغيّر منذ بداية القرن السادس عشر عندما بدأت تهب رياح النقد والمراجعات على تمثلات تلك الصورة المتوارثة والذي تزامن مع ظهور مؤلف "وصف إفريقيا" الذي قدم قراءة مجُدّدة لإفريقيا.

II – المشاهد الطبيعية والبشرية والثقافية في "وصف إفريقيا"

إن اختزال ما كتبه الفاسي(عاش حسب التقريب بين 1488 – 1554) حول المعطيات الطبيعية والبشرية والثقافية الإفريقية في عدد محدود من الصفحات لأمر صعب المنال، على اعتبار وفرة المادة وكثرة التفاصيل المفيدة لكل متعطش لمعرفة أحوال إفريقيا القرن السادس عشر في أدق تفاصيلها. ولكن نكتفي بإبراز بعض المعطيات التي بدت لنا فريدة عند مقارنتها بما سبق من توصيفات أوروبية أوردناها في القسم الأول من هذه الورقة.

1 – المشهد الطبيعي الإفريقي:

حرص الوزان الفاسي على تحديد أقسام إفريقيا الأربعة كما تمثلها من خلال علامات تضاريسية واضحة تحدد بداية كل قسم ومنتهاه، مُسهبا وبطريقة علمية في توصيف الخصائص الطبيعة لكل اقليم، متجنبا بذلك الأحكام العامة كالتي وجدناها في المؤلفات الأوروبية. ولقد اتبع الفاسي في تقسيمه لمجالات افريقيا تقسيما عموديا انطلق فيه بقسم بلاد البربر الذي يبتدئ :" شرقا من جبل ميس آخر قمم الأطلس على بعد نحو ثلاثمائة ميل من الاسكندرية. ويحدها شمالا البحر الأبيض المتوسط من جبل ميس إلى أعمدة هرقل، وتمتد غربا من هذا المضيق إلى آخر قمم الأطلس على طول ساحل المحيط، أي إلى أقصى

الجهة الغربية لهذه الجبال، حيث تقع مدينة ماسة وتنتهي جنوبا قرب الأطلس على السفوح المواجهة لبحر المتوسط[37]. ويعم تلك الأقاليم مناخ بارد في فصل الشتاء، على طول ساحل بلاد البربر إلى حدود الجبال الواقعة فيه، مع تساقط الثلوج في بعض الأوقات. وتنبت في جميع هذه الجبال الحبوب والفواكه، وخاصة الشعير، الذي يصنع منه الخبز في معظم أوقات السنة[38].

ونجد بعد ذلك، إقليم بلاد الجريد الذي يتوافق مع التسمية الرومانية نوميديا، ويمتد على المجالات الواقعة جنوبي سلسلة الأطلس و"يبتدئ شرقا بالواحات، وهي مدينة تقع على بعد نحو مائة ميل من بلاد مصر، ويمتد غربا إلى نون على ساحل المحيط، ويصل شمالا إلى سفح الأطلس الجنوبي، ويطلق العرب نفس الاسم على جميع هذه البلاد المنتجة للتمر لأن موقعها واحد"[39]. وهي بلاد جافة وحارة، توجد بها أنهر قليلة تنبع أيضا من الأطلس وتجري نحو صحراء ليبيا حيث تختفي في الرمال، ويكوّن بعضها بحيرات. ليس بهذه البلاد سوى القليل من الأراضي التي يمكن زراعتها، لكن فيها كمية عظيمة من النخيل وبعض أشجار الفواكه[40].

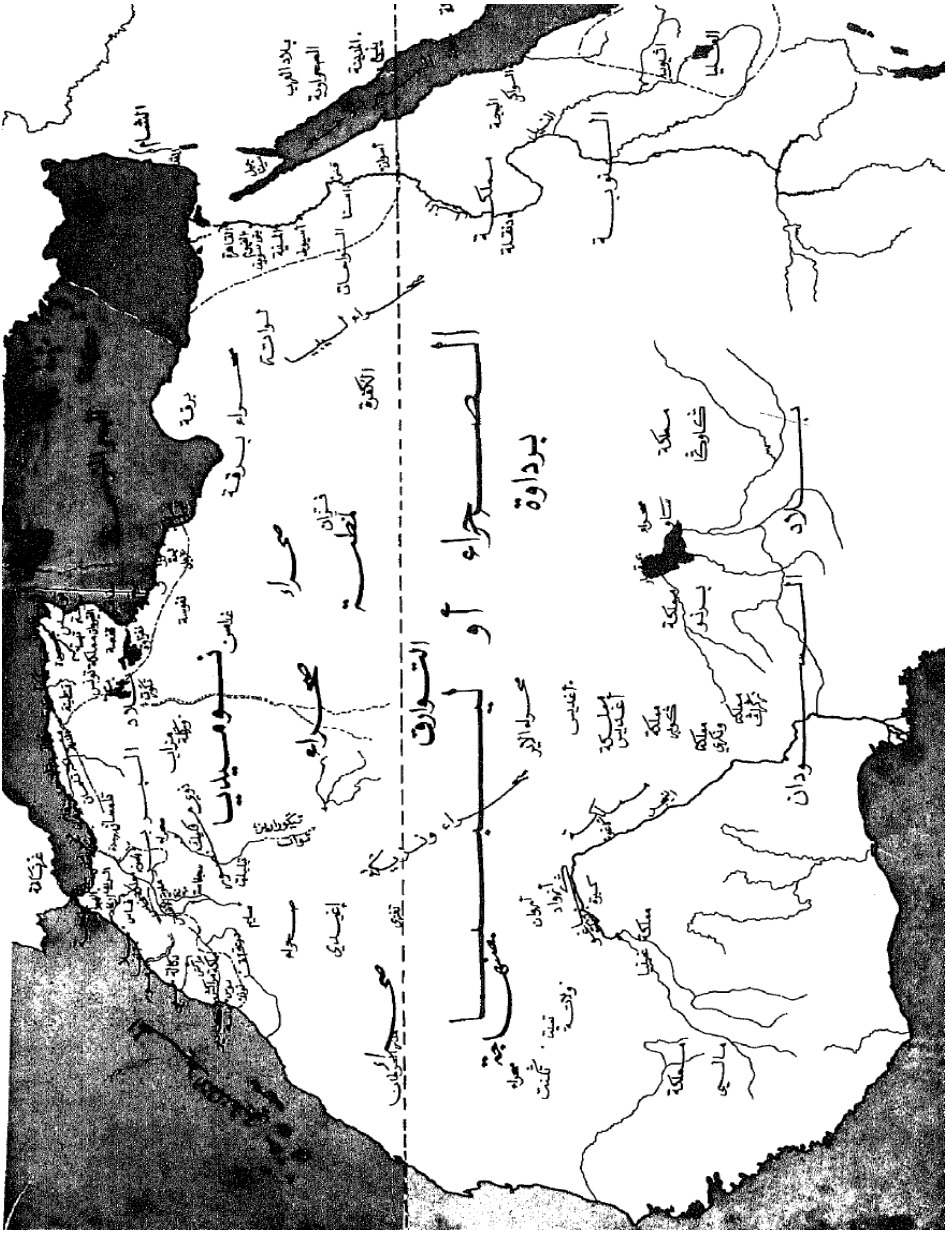
الصحراء أو التوارق
برداوة
مصر
ليبيا
الجزائر
السودان
مالي
النيجر
تشاد
نيجيريا
موريتانيا
المغرب
تونس
طرابلس
بنغازي
القاهرة
الإسكندرية
سبها
غدامس
تمبكتو
أغاديس
كانو
زاريا
سكوتو
بورنو
وداي
فزان
الكفرة
الجغبوب
سيوة
واحة
سكنة
مملكة
محيط
بحر
صحراء
جبل
نهر

ومن وراء بلاد الجريد يوجد إقليم الصحراء المترامي المعروف بليبيا ، ويطلق عليه بالعربية اسم الصحراء أي القفر وفق تعليل ليون الإفريقي، الذي "يبتدئ شرقا بتخوم الواحات، ويمتد غربا إلى المحيط. ويجاور نوميديا في الشمال بلاد النخيل، وفي الجنوب أرض السودان التي تبتدئ شرقا بمملكة ولاتة الواقعة على شاطئ المحيط"[41]. وهي الأخرى بلاد كلها صحراء ورمال، لا نهر فيها ولا ماء باستثناء بعض الآبار ذات الماء المالح الأجاج. وفي بعض النواحي لا يوجد الماء في طول مسافة سفر ستة أيام أو سبعة. وتكثر في الصحراء الحيوانات الضارة[42]. ومن بعدها نجد أقاليم بلاد السودان الواقعة وراء الصحراء التي تمتد" شرقا بمملكة كاوكة ويمتد غربا إلى مملكة ولاتة، ويتاخم في الشمال صحراء ليبيا، وينتهي جنوبا إلى المحيط في مواقع لا نعرف عنها غير ما يرويه التجار الذين يأتون إلى مملكة تنبكتو، وهو كثير"[43]. والبلاد الواقعة في أرض السودان شديدة الحرارة، إلا أن بها شيئا من الرطوبة بسبب (نهر) النيجر، وكل الأقاليم المجاورة لهذا النهر تصلح جدا للزراعة، وتنمو فيها الحبوب بكثرة وتوجد بها من الماشية أعداد لا تحصى[44].

ورغم تشديد الكاتب على إفراد كل قسم بمجمل خصائصه الطبيعية والمناخية قبل الانتقال إلى بقية التفاصيل الأخرى، فإن الوزان الفاسي عاد في القسم الأخير من مؤلفه إلى الحديث بأكثر تفصيل عن بقية مكونات المشهد الطبيعي وخصائصه المناخية في عموم إفريقيا. فبيّن خصائص أنهارها وجبالها ووديانها وحيواناتها ونباتها. فبالنسبة إلى الأنهار فقد عدد الفاسي أبرزها وعرّف بها مثل: نهر سبو وأم الربيع والملوية ودرعة ونهر النيجر والنيل وشلف ومجردة، محددا لمنابعها ومصباتها وأشكال استغلالها وأهم الأحداث التاريخية التي وقعت بالجوار منها، معرجا في بعض الأحيان على أصل التسميات. ثم ذكر أصنافا من حيوانات إفريقيا مركزا بالأساس على تلك التي لا توجد في أوروبا، فقام بتبويبها إلى حيوانات برية: كالفيلة والأسود والزرافة والجمال والأبقار والخيول المختلفة دون أن يغفل عن ذكر الحيوانات الصغرى: كالغنم والماعز والقرود والأرانب وقطط الزباد وأصناف من الثعابين. وتعرض بالحديث عن الحيوانات المائية مهتما بالضخمة منها كسمك العنبر وفرس البحر وثور البحر والتمساح وما إلى ذلك من حيوانات وجدت في النهرين العظيمين النيجر والنيل. ثم استعرض خصائص أشهر الطيور بالقارة في الأقاليم المختلفة كالنعامة والنسر والباز والخفاش والببغاء. كما استعرض بعض معادن إفريقيا كالملح والكحل والفضة والذهب

والنحاس وغيرها، وأشار إلى نباتات تستخرج منها مواد صناعية كالصمغ والقطران وإلى بعض الفواكه كالموز والترفاس والتمر والجميز أو التين المصري.

تعكس وفرة المعطيات الطبيعية والمناخية الواردة في "وصف إفريقيا" الاهتمام الشديد من قبل الأفارقة وخاصة المغاربة بالظوهر الطبيعية والمناخية والتي من خلالها وضعوا روزنامة أعمالهم. فقد كان المغاربة مولعين بتتبع روزنامة الفصول وما يصحبها من تقلبات جوية وذلك لحرصهم على ترتيب أنشطتهم الزراعية والبحرية التي مثلت مورد معاشهم الأول في ظل تهديدات المجاعات المتواترة. ولقد أبدوا نفس الانشغال بمناخات المناطق الجبلية وخاصة منها الأطلسية والمناطق الصحراوية لتحديد أزمنة عبور التجار عبرها نحو الصحراء لممارسة النشاط التجاري مع واحات الصحراء وأقاليم بلاد السودان[45]. كما عكس إصرار ليون الافريقي على ذكر تفاصيل الطبيعة الإفريقية وعيه بعديد الأخطاء العلمية التي كانت قد تسربت إلى المؤلفات الأوروبية، فوجد في تدوينه لمؤلفه فرصة لتصويبها[46].

2 – المشهد البشري في إفريقيا:

قدم الكاتب في بداية مؤلفه قراءته التاريخية لتعمير المجال الإفريقي من قبل المجموعات البشرية الأولى ما يعكس التزامه بذلك الترابط المنهجي بين المعطيين التاريخي والجغرافي لدراسة المجال. فليون الإفريقي كان على علم مرة أخرى بالأخطاء الأوروبية التي طالت أيضا الجغرافيا البشرية الإفريقية. إذ كان الأوروبيون يزعمون " أن افريقيا في القديم كانت خالية من السكان باستثناء أرض السودان، ومن المؤكد لديهم أن بلاد البربر ونوميديا لم تكن كل منهما مسكونتين طوال عدة قرون،[47]" وذلك لعدم توافق الشروط الطبيعية للاستقرار البشري مثلما سبق أن بينا. كما طالت بعض الأخطاء المؤلفات الجغرافية العربية على غرار ما ذكرته تلك المصادر حول خصائص اللغة الأمازيغية وأشكال التواصل بين مستخدميها بقول الكاتب "ويعرف سكانها البيض بالبربر، وهي كلمة مشتقة حسب رأي بعضهم من الفعل العربي بربر بمعنى همس لأن اللهجة الافريقية كانت عند العرب بمثابة أصوات الحيوانات العجموات[48]".

فالبنسبة إلى المسألة الأولى حول أصل الظاهرة البشرية في المجال الافريقي وتاريخها، فإنها لاتزال إلى اليوم محل جدل بين الباحثين، إذ لم تتوصل البحوث العلمية بعد إلى حسم هذا الموضوع، وهو ما فتح الباب أمام الفرضيات المتعددة. ومنها ما طرحه الوزان الفاسي حول أصول "البربر" كتسمية رومانية واصل العرب اعتمدها لاحقا أو اللوبيين وفق التسمية الاغريقية. فالفرضية الأولى تحيل على كون السكان الأصليين لإفريقيا "ينتمون إلى الفلسطينيين الذين هاجروا إلى إفريقيا حين طردهم الآشوريون، فأقاموا بها لجودتها وخصبها"[49]. وتحيل الفرضية الثانية على "أن أصلهم راجع إلى السبئيين الذين كانوا يعيشون في اليمن قبل أن يطردهم الآشوريون أو الأثيوبيون منها...أما الافارقة السود بمعنى الكلمة فإنهم جميعا من نسل كوش بن حام بن نوح. ومهما اختلفت مظاهر الأفارقة البيض والسود فإنهم ينتمون تقريبا إلى نفس الأصل.[50]". وبقطع النظر عن وجاهة رأي الحسن الوزان الفاسي حول أصول سكان قارته وما طرحه من نقاش بين باحثي عصره أو قبله، فإن تناوله للموضوع يتفق مع جمهور العلماء العرب ممن تناولوا ذلك الموضوع على غرار ابن الكلبي والجرجاني والطبري وابن خلدون، فلا غرو أن تناوله كان يحتكم إلى قدر كبير من الموضوعية العلمية بخلاف المصادر الإغريقية التي مالت الي استخدام الأساطير في ظل فقدانها للمعرفة الجغرافية والميدانية.

وبخصوص اللغة وأدوات التواصل عند الأفارقة، فقد فنّد الحسن الوزان الفاسي رواية غياب لغة خاصة بسكان شمال افريقيا مثلما زعمت المصادر الأوروبية القديمة وأيضا بعض المصادر العربية، بدعوى أن العرب الفاتحين عند حلولهم بالمنطقة لم يجدوا إلا الكتابة اللاتينية[51]، مبرزا اختفاء الأبجدية البربرية نتيجة لطمسها من قبل الرومان كما فعلوا مع الأبجدية الفينيقية حال انتصارهم على قرطاج، ووضعوا مكانها عناوينهم وحروفهم حتى يخلدوا وحدهم[52]. وهو أمر أثبتته الدراسات المعاصرة التي أكدت تواصل استخدام اللغة الأمازيغية القديمة عند بعض القبائل الصحراوية والتي تدعى بلغة تيفيناغ عند الطوارق[53].

ومن خلال ما قدمه الوزان الفاسي من شروح حول المسألة السكانية في إفريقيا، فإنه يمكننا الوقوف عند جملة الاستنتاجات التالية وهي: أن قساوة المناخ والجفاف الذي تحدثت عنه المصادر الكلاسيكية وإليه أرجعت فقدان أشكال حياتية عادية، حائلة دون انتظام

حضارات عريقة كحضارة مصر والعالم الإغريقي، لم تكن في واقع الأمر حائلا لبناء صلات اقتصادية وحركات هجرية ضخمة بين الأقاليم الإفريقية الأربعة. لقد رسم الأفارقة منذ العهد البوني أو حتى قبله طرقا تجارية عديدة تربط بين الصحراء والموانئ المتوسطية. ودحض الفاسي فكرة خلاء المنطقة من السكان، فحتى الجبال وخاصة منها الأطلسية ورغم قسوة مناخها، فإنها كانت مناطق معمورة ذات كثافة سكانية عالية جاوزت أحيانا كثافة السهول المحاذية لها. واستقبلت السهول الخصبة بصنفيها: الساحلية والداخلية، نشوء عديد القرى والبلدات والحواضر، وتشكيل كيانات سياسية متحضّرة. وهوما يحيلنا على عراقة الظاهرة في إفريقيا استمرت عبر القرون ولم تنقطع حتى في أحلك أوقاتها على غرار تقلبات القرن السادس عشر، القرن العصيب الذي أثّر في نسق الأحداث بشمال إفريقيا والمتوسط.

ولكن لم تكن الصورة ببلاد المغرب وبإفريقيا شديدة القتامة مثلما صورت ذلك عديد المصادر، فقد نسّب الحسن الوزان - الذي كان معايشا لتلك التقلبات- الأمور، مبينا في أكثر من موضع مدى ازدهار بعض الأقاليم والحواضر التي استفادت من أزمة أقاليم أخرى أو من حيوية نشاط القرصنة أو نتيجة لدور الزوايا المتنامي الذي واكب ازدهار التدّين الشعبي وإسهاماته في نشر مناخات آمنة في تلك الأقاليم، وما رافقه من ازدهار للمبادلات التجارية بين حواضر بلاد المغارب ومدن الصحراء وبلاد السودان.

إن صورة إفريقيا البشرية كما قدمها الكاتب كانت حاملة لكثير من التجديد إذا ما قارناها بما أوردناه حول مضامين الصورة الأوروبية القديمة، إلا أن ذلك لا يجعلنا نغفل عن تبنيه لبعض الأحكام الدونية على سكان إفريقيا جنوب الصحراء. فقد نعت سكان منطقة بورنو على سبيل المثال ب" أنهم يعيشون كالهائم لأنهم لا يعتقدون في أي واحدة من الديانات السماوية"[54]. وهو أمر لا يثير كثيرا من الغرابة في رأينا على اعتبار تواتره في عدد غير قليل من مؤلفات الرحلة والجغرافيا المغاربية والأندلسية والعربية حول الشعوب الإفريقية من أمثال ابن حوقل وابن بطوطة والإدريسي عن سكان شرق إفريقيا وهي مؤلفات لم تخل من إبراز للمركزية المغاربية والعربية تجاه بقية الشعوب الأخرى وخاصة الشعوب الافريقية الواقعة جنوب الصحراء. وكذلك بسبب غياب التواصل المباشر بتلك المجالات النائية، فاكتفى فيها الكاتب بتكرار ما سمعه من التجار الذين التقى بهم[55].

3 – مشاهد ثقافية من إفريقيا:

لم يكتف ليون الإفريقي أثناء دراسته لإفريقيا بتقديم بسطة تاريخية عامة حول تاريخ القارة وإرفاقها بدراسة جغرافية شاملة أتت على الجوانب الطبيعية والمناخية والنباتية والحيوانية وحسب، وتجاوز ذلك وغاص في مكونات المشهد الثقافي لساكني القارة بجميع مكوناته المادية وغير المادية[56].

أ – الثقافة المادية

الثقافة المادية وفق تعريف فرناند برودال Fernand Braudel هي الناس والأدوات المستخدمة لأجل تحقيق الإنسان لوجوده الطبيعي[57]. أي كل ما ينتجه الإنسان من وسائل لتحقيق ذاته وضمان بقائه. ونظرا لوفرة المعطيات الواردة في مؤلف "وصف افريقيا" حول الثقافة المادية الإفريقية إرتأينا تصنيفها إلى ثلاثة مجالات.

* **طعام الأفارقة وغذاؤهم**: تكفل ليون الافريقي بوضع تدقيقات جد مفيدة حول الأنظمة الغذائية للأفارقة وأطعمتهم وعوائدهم في الطبخ وطقوس الأكل عندهم، مبرزا تمايز الأطباق لدى الأعيان وعامة الناس والفقراء. وحملت سرديته إحالات عن مكونات الأطعمة الافريقية التي كانت في مجملها معتمدة على منتجات محلية وهي أساسا : القمح والشعير والزيتون والحليب والزبدة والتمر والتين، وزيت الزيتون وزيت الهرجان. ويتناول عامة الناس في بعض المناسبات، ووجهاء المدن في سائر الأيام أصناف عديدة من لحوم الأغنام والطيور والطرائد، ويقبل سكان المناطق الساحلية والمجاورة للأنهار الكبرى والبحيرات على استهلاك الأسماك. وفي العموم، فقد كانت جلّ الأغذية والأطعمة الإفريقية في المجالات المنتجة للحبوب تعتمد بالأساس على تغلية أصناف مختلفة من الدقيق في شكل عصيدة والبازين، وعلى طبخ أصناف مختلفة من الخضروات في شكل مرق. وامتاز طعام الكسكسي بتوصيف مخصوص من قبل الرحّالة العربي بوصفه الطعام الأكثر تداولا وقد فاقت شهرته مجالات المغارب لتصل إلى جزر المتوسط. وأما بالأقاليم الجافة والصحراوية التي تعتمد تربية الماشية فإن استهلاك اللبن الطازج ومشتقاته والتمور هو الملاذ الأول لأجل توفير حاجياتهم الغذائية.

*مكونات اللباس: حظيت مكونات اللباس الإفريقي من غطاء الرأس إلى الساقين بعناية كبرى من قبل الوزان الفاسي، متوقفا في كثير من الأحيان عند إبراز الاختلاف بين مكونات اللباس اليومي في الفضاءات العمومية وملابس الفضاءات الخاصة، وألبسة المناسبات: كملابس صلاة الجمعة وملابس التنقل إلى الحمام خاصة لدى النسوة وملابس الأفراح والأعياد، وحتى ملابس الأتراح. كما عرج الكاتب على ذكر أنواع المنسوجات والأقمشة المستخدمة[58] في صناعة الملابس والحياكة.

ورغم تشابه أردية سكان المغارب، فإن الكاتب قد أغنى نصه ببعض المقارنات بين ألبسة سكان الحواضر الكبرى على غرار مدينتي فاس وتونس وتلمسان للوقوف عند عناصر التشابه والاختلاف فيها. وشدد كذلك على الفروق البارزة في الملبس بين سكان الحواضر وسكان المداشر والجبال الفقيرة والقبائل الصحراوية، واختصاص أهل العلم والتجارة والحرف والجند بأزيائهم المميزة دون بقية الناس. ومهما يكن من أمر فقد مثل اللباس عنوانا بارزا للانتماء الاجتماعي، فملابس أعيان المدن وأرديتهم تختلف عن لباس عامة الناس، خاصة بعد إقبال الأثرياء على اقتناء الملبوسات الوافدة من المدن الايطالية والإسبانية، مستفيدين من تكثّف المبادلات التجارية بين ضفتي المتوسط منذ القرن الرابع عشر. ورغم الاختلاف الظاهر في المظهر الخارجي بين مختلف الأصناف الاجتماعية والحرف فقد مثل البرنس - الذي ينسج من الصوف أو وبر الجمال[59] - لباسا جامعا لسكان بلاد البربر: الفقراء والأغنياء على حدّ السواء، حيث يقوم بوظيفته حماية الجسم من البرد ويمثل عنوان الإنتماء إلى ثقافة مغاربية مخصوصة.

* **المنشآت المعمارية** : استقطبت حواضر إفريقيا الكبرى مثل فاس ومراكش وتلمسان وتونس والقاهرة وتنبكتو منشآت معمارية قديمة عاكسة للإرث العمراني الذي تم تدعيمه بمنشآت حديثة تستجيب لحاجيات ساكنيها. وفي ظل ظرفية أمنية مضطربة كالتي عايشتها المنطقة في القرن السادس عشر مثلت الأسوار الخارجية مركز اهتمام سكان المدن قصد حمايتهم من الأخطار الخارجية أو من أعمال الحرابة التي تشنها القبائل الثائرة بين الحين والآخر. كما حفل "وصف إفريقيا" بصفحات عديدة تبرز خصائص الفن المعماري والزخرف المغاربي والإفريقي لعدد من المنشآت المعمارية الشهيرة كالجوامع والمساجد والقصور السلطانية والحمامات والفنادق والمدارس والأسواق والدكاكين والطواحين

والمستشفيات وغيرها من البناءات. ولقد انتهت تلك العروض إلى إبراز اختلاف المشهد العمراني بالقرى الجبلية مقارنة بما وجد في الحواضر، حيث كانت مساكن الجبليين تميل إلى بساطة التصميم، وخلوها من كل زخرفة أو فن معماري أصيل، إذ كانت غاية ساكنيها لا تتجاوز الاستظلال والكين على حدّ تعبير ابن خلدون[60]. فهي ملاجئ للاحتماء من أذى العوامل الطبيعية والحيوانات البرية، وأيضا من بطش الحكام وجامعي الضرائب. أما المجموعات القبلية الظّاعنة في الصحراء، فقد آثرت سكن الخيام تمسكا بعادة الأجداد. فتصنع تلك الخيّام من نسيج أسود من الصوف وشعر الماعز وغيرهما وكذلك من نسيج سعف النخيل، ويكون كل ذلك مجموع هذا النسيج الخشن المتراص جدا، حيث يقاوم المطر وحرارة الشمس[61].

ب - الثقافة اللامادية

كانت مقاربة الحسن الوزان الفاسي شاملة مست جوانب متعددة من الثقافات الإفريقية، لم يهمل فيها الحديث عن جوانب مختلفة من الثقافة اللامادية: كالحياة الروحية والمنظومات القيمية التي يحتكم إليها سكان كل منطقة من القارة، والأشكال الاحتفالية والفرجوية وطقوس الأفراح والأتراح وجوانب من الحياة الفكرية والعلمية بكبرى الحواضر.

فعلى المستوى العقائدي والروحي أسهب الحسن الوزان الفاسي في الحديث عن مسألة الولاية والصلاح والكرامات، وهذه الظاهرة تحيلنا علىالتصوف الشعبي أو التدّين الشعبي على حدّ توصيف الباحث لطفي عيسى، بوصفه تدّينا يمتزج فيه أداء الشعائر الدينية المألوفة عند عموم المسلمين مع طقوس أخرى تعود في كثير من الأحيان إلى أشكال تدّين قديمة سابقة لظهور الاسلام: كالإنشاد والرقص والشطح المصحوب في معظم الأحيان بالصراخ وتمزيق الثياب والغناء واستعمال بعض الآلات الموسيقية للتطريب مثل الربابة والشبابة والدف[62]. فلم يكتف الفاسي بوصف مدى انتشار تلك الظواهر في مجالات المغارب بل تجاوز ذلك إلى البحث في جذور تشكلها وخصائصها وأدوارها ودواعي انتشارها. باعتبار تمكن التدّين الشعبي في زمن الفاسي من فئات بشرية واسعة، فانتشر كفكر وكاعتقاد عند العامة والفئات المحرومة، وتحوّل عدد من الفقهاء والعلماء لسان دفاع عن معتنقي ذاك

الصنف من التدّين، ومباركة أصحاب القرار الذين استخدموا رموز الصلاح في فرض الطاعة لأولي الأمر[63].

ورصد الفاسي عادات الزواج في مدينة فاس ذاكرا تفاصيله، فكانت الاحتفالات تمتد لسبعة أيام تقام فيها الولائم والأفراح والسهرات والرقص والغناء بالتوازي بين داري أهل العروسة والعريس، وتوزع فيها اللحوم المشوية والفطائر والعسل. ومن جهة ثانية وصف الوزان الفاسي طقوس الموت في مدينته فاس كبيئة كان الموت فيها يحصد آلاف الأرواح نتيجة شيوع أشكال تطبيب تقليدية في ظل تواتر الأوبئة، وهو ما خلّف وهنا ديمغرافيا في المنطقة تواصل إلى الفترة الاستعمارية. ففي ذلك المناخ الحزين يرتدي أهل الميت لباسا خشنا وتلطخ الوجوه بسواد القدور ويحضر مجموعة من المخنثين لضرب الدفوف وإنشاد مجموعة من الأنظمة الحزينة، وتتكفل النسوة بالعويل وخدش الصدور والخدود ونتف الشعور والنواح لمدة سبعة أيام وثلاثة ايام عند حلول الأربعين[64].

المدينة المغاربية هي ليست فضاء للعمل أو العبادة وحسب بل خصص ساكنوها فيها أوقاتا وأفضية للتسلية للكسر مع النمطية اليومية، ولتستعيد النفوس الرغبة في العمل والتكسّب. فقد اهتم ليون الافريقي بطرق اللعب والتسلية والعروض الفرجوية التي تقام في ساحات المدينة أو بالتوازي مع انعقاد الأسواق الأسبوعية. وقام بتصنيفها إلى صنفين: صنف أول من الألعاب يشارك فيها علية القوم واعتبرهم أناس "مهذبين من ذوي البيئات الحسنة" الذين يقبلون على لعبة الشطرنج في القصور والبلاطات، ومتابعة العروض الفرجوية التي ينظمها السلطان المغربي بالقصبة السلطانية. وصنف ثان هي ألعاب عامة الناس، ويغلب عليها الطابع التنافسي العنيف كالمبارزة بالعصي والتراشق بالحجارة. وبعض العروض الشعبية كمشاهد يومية تعقد بصفة تلقائية بساحات الحواضر المغربية ورحباتها وعند أبواب المدن وفيها ينشد المنشدون قصائد وأغنيات وهم يلعبون بالدف والربابة والقيتار وغيرها من الآلات[65].

خاتمة

تشكلت معارف الأوروبيين حول افريقيا طبيعة وسكانا، وتعقلوها من خلال ما نقلته الآداب اليونانية واللاتينية القديمة، التي لم تتطرق في واقع الأمر إلى موضوع افريقيا بصفة

مباشرة، بل كان في شكل فقرات متناثرة وردت بصفة عرضية أو من باب الاستطراد. كما لا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا الصعوبات التي واجهها محبرو تلك الفقرات في استقاء معلوماتهم، وهو ما دفعهم إلى تكرار ما تم تداوله أو ما أنتجته المخيلة الأوروبية المتمترسة وراء مركزيتها المتعالية. فكان صوت الأفارقة وحديثهم عن قارتهم في تلك المصادر مغيبا، وكأنهم شخصيات ثانوية تكتفي بالمتابعة والإنصات لمن يتحدث عنها بالنيابة.

ثم أخذت النظرة الأوروبية حيال افريقيا في التغيّر حال صدور مؤلف "وصف افريقيا"، الذي كتبه رحّالة عربي من أصول إفريقية، عُرف بسعة اطلاعه وإلمامه بمصادر المعرفة العالمة العربية والأوروبية، وهو ذو خبرة بأخبار القارة وتفاصيلها وتاريخها ما أهّله أن يكون أفضل المتحدثين عنها، وجعل الأوروبيين ينجذبون إلى روايته التي كتبها بأسلوب يستجيب للذائقة الأدبية والفكرية الأوروبية، ما فسر سرعة انتشار كتابه ورواجه في جميع أصقاع أوروبا، محققا تلحولات معرفية كبرى .

فمن تلك التحولات يمكن ذكر الدور الريادي للوزان الفاسي في تحرير مصطلح "إفريقيا" من عقال التمثلات الأوروبية المغلوطة التي التصقت بالأذهان حول الطبيعة والسكان مبرزا أن تلك القارة قد احتضنت حضارات ومجتمعات لا تقل قيمة عما وجد بأوروبا وآسيا. وحرر الكاتب أيضا مجال امتداد مصطلح "إفريقيا" من مجال جغرافي ضيق شمل في بداية ظهوره ما تبقى من الإرث المجالي القرطاجي، ثم تمدّد مدلوله مع مقدم العرب والمسلمين ليشمل أجزاء واسعة من "شمال إفريقيا المفتوحة" قبل ولادة مصطلح عربي وسم المنطقة ببلاد المغرب. وقد مدّد الحسن الوزان الفاسي مفردة افريقيا - رغم بعض الالتباس والتردد - على كامل افريقيا بدءا من بلاد البربر إلى ما وراء الصحراء أي إلى منتهى أفق رؤية الفاسي للمجالات الافريقية.

لقد عكس مؤلف "وصف إفريقيا" براعة صاحبه في دقة الوصف وتنويعاته الأسلوبية التي مكنته من تجاوز مجرد الإخبار بأحوال افريقيا إلى تقديم عروض مركبة شكّلها الكاتب في مشاهد ثقافية تحيل قارئها على خصوصيات المجتمعات وثقافتها، وتبرز مدى انصهار عدة أجناس بشرية بطريقة سلسة وسلمية وإنتاجها لأنماط ثقافية تراعي خصوصياتها المحلية. ولقد دفعت القراءة المميزة لإفريقيا من قبل الحسن الوزان الفاسي وسهولة ترجمته - رغم

بعض المآخذ الواردة فيه - الأوروبيين إلى إعادة الاهتمام بموضوع إفريقيا بعدما ذهب في ظنهم أن كتّاب التاريخ والجغرافيا القدامى قد استوفوا مهمتهم.

وفي خضم ذلك، وبعد حوالي نصف قرن من كتابة "وصف إفريقيا" ظهر مؤلفا آخر عنى بأخبار القارة وسم ب"إفريقيا"[66] للكاتب الإسباني مارمول كاربخال[67] ومن المصادفة أن كاتبه ينحدر بدوره من مدينة غرناطة ولكن بعد تنصيرها من قبل ملوك إسبانيا، ما جعل مؤلفه يحمل رؤية أوروبية أخرى تتقاطع أحيانا مع عروض الوزان الفاسي وتختلف معها أحيانا أخرى. ولكنهما ظلا من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية الأوروبية حول افريقيا إلى حين انطلاقة أوروبا نحو إفريقيا وميلها إلى تبني معارف جديدة تنبني على الزيارات الميدانية بتنظيم رحلات استكشافية برية وبحرية، وتأسيس جمعيات جغرافية وتوجيه الباحثين في العلوم الانسانية نحو مجتمعات إفريقيا لغايات استكشافية واستعمارية.

الهوامش:

[1] - ظهر "وصف إفريقيا" سنة 1550 بروما ضمن موسوعة "الرّحلات والنصوص الجغرافية" بالبندقية والتي كانت تسمّى بالإيطالية «*Dell navigationi et viaggi*» تحت إشراف الإيطالي جون باتيستا راميزيو. وكان الهدف من وضعها تجديد معارف أوروبا والاستفادة من التحوّل المعرفي بفضل الاكتشافات الجديدة، التي كان لها صدى كبير وانطلاقة جديدة لعلم الجغرافيا عند الأوروبيين. ولقد سعى واضعها أن يكون مجدّدا وباعثا لجغرافيا حديثة قاطعة مع أخطاء القرون الماضية، وأقرب ما تكون إلى الواقع اعتمادا على مشاهدات الرّحالة ونتائج المكتشفين والملاّحة.

[2] - خاض عديد الباحثين في رسم سيرة ذاتية للحسن الوزان الفاسي منذ خروجه من غرناطة في صباه إلى حين أسره في البحر وانتقاله للعيش في إيطاليا، وللوقوف عند تفاصيل حياته التي شابها بعض الغموض يمكن العودة إلى المراجع التالية:

* - تقديم الكاتبين محمد حجي ومحمد الأخضر لكتاب **وصف إفريقيا**، ترجمه إلى العربية كل من محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.

* - النفاتي(عادل)، **المجتمع والجغرافيا الثقافية لبلاد المغارب، حفريات في أدب الرحلة**، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2015.

* - خالد(الطاهر)، " مساهمة الحسن بن محمد الوزان في التأريخ لبلاد السودان من خلال كتاب وصف إفريقيا"، **المجلة التاريخية الجزائرية**، العدد04، الجزائر 2017.

* Zhiri(O), *L'Afrique au miroir de l'Europe: Fortunes de Jean Léon l'Africain à la Renaissance*. Ed. Librairie Droz, Genève, 1991.

* Massignon(L), *Le Maroc dans les premiers années du XVI^e siècle : tableau géographique d'après Léon L'Africain, Alger – Jourdon. 1906.*

[3] - نظم قدماء اليونان رحلات استكشافية برية وبحرية إلى إفريقيا وتعتبر رحلة هيرودوت أشهرهم.

[4] - أعشى (مصطفى)، **أحاديث هيرودوت عن الليبيين**، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2009، ص ص 19 – 20.

[5] - حميدة(عبد الرحمان)، **أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم**، دار الفكر بدمشق، 1995، 62.

[6] - يعد وصف هيرودوت لسكان المغرب القديم من أقدم المصادر الكلاسيكية حيث تناولها بشيء من التفصيل خاصة فيما يتعلق بصفاتهم وبعض أنواع نشاطاتهم. فقد اشار في كتابه الثاني المتعلق بمصر أكثر من مرة إلى جيرانها بالغرب، ومال إلى مزيد التفصيل في كتابه الرابع الذي حوى ثلاثين فقرة حول الأفارقة.

[7] - عاش بين 480 – 425 ق.م

[8] - هيرودوت، **كتاب التواريخ**، ترجمة عبد الإله الملاح، المجمع الثقافي أبو ظبي ، 2001. الكتاب الرابع، الفقرتان 42 و43.

[9] - عاش في القرن الثامن ميلادي وكان أحد رموز المعرفة التاريخية والجغرافية خلال الفترة الوسيطة.

[10]- Zhiri(O), *L'Afrique au miroir de l'Europe: Fortunes de Jean Léon l'Africain à la Renaissance*, op Cit p 16.

9- Ibid. P15.

[12] - أزايكو(علي صدقي)، **تاريخ المغرب والتأويلات الممكنة**، مركز طارق بن زياد، الرباط 2002. ص 10.

[13] - عاش بين 63 م – 161م

[14] - عاش بين 1485 - 1535

[15] - عاش بين 1488 - 1552

[16] - هيرودوت، **كتاب التواريخ**، م س، الكتاب الرابع، الفقرة 168.

[17] - يطلق هيرودوت كلمة ليبيا في أغلب الأحيان للإشارة إلى الأمازيغ السكان الأصليين لشمال إفريقيا وأحيانا أخرى على كامل القارة. أنظر أعشى (مصطفى)، **أحاديث هيرودوت عن الليبيين**، م س، ص 27.

[18] - لوبيا أو ليبيا وهي تسمية اطلقت على منطقة شاسعة تمتد على طول المتوسط من مصر شرقا إلى رأس صولويس غربا، ويتكون من اسم الشعب الذي يسكن المنطقة، وفق ما دلت عليه الوثائق المصرية التي دونت في القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد تحت اسم الليبو Lebou. ومن المحتمل أن الإغريق قد استعاروا واستخدموا نفس المفهوم.

[19] - اقليم برقة بشمال شرق ليبيا اليوم.

[20] - هذا الإقليم غير مذكور بكثرة في الجغرافيا الكلاسيكية ما عدا بطليموس الذي تحدث عن بلاد المارمديين Les Marmarides والذي حدده بين ليبيا قورينائية وبين مصر، انظر :

- Gibrat (J- B), *Géographie ancienne, Sacrée et profane*, tome IV. P 207.

[21] - لبدة الكبرى، أويا او طرابلس حاليا، و صبراتة.

[22] - هي مملكة أمازيغية بشمال إفريقيا امتدت على شرق الجزائر وغرب تونس، تأسست سنة 202 ق.م. ويبدو ان أصل الكلمة بربرية امتزج مع اللفظة الإغريقية نومادس التي تدل على الرعاة الرحالة، وسنلاحظ أيضا أن الحيز المجالي الذي تغطيه نوميديا وفق المصادر الأوروبية ليس هو ذاته عند ليون الإفريقي. فنوميديا كما حددها ليون الإفريقي تمتد أساسا على اقليم الجريد التونسي أي بداية الصحراء الإفريقية الكبرى بعكس ما حددته المصادر الأوروبية القديمة.

[23] - عاش بين 360 – 428 م

[24] - هيرودوت، **كتاب التواريخ**، م س، الكتاب الثاني، الفقرة 31.

[25] - أعشى (مصطفى)، **أحاديث هيرودوت عن الليبيين**، م س، ص 85.

[26] - وهو ما يقابل اليوم مجال البلاد التونسية.

[27] - خليج السرت بليبيا اليوم.

[28] - فعند ركبوه للنيل تهيأ لهيرودوت أن مجراه ينبع من ليبيا أي بلاد الأمازيغ، فذكر:"عرفنا مجرى النيل على مدى رحلة امتدت أشهر سواء في ركوب النهر أو السير برا، وهو الزمن الذي تستغرقه الرحلة للذهاب من الإيليفانتين Eléphantines إلى بلاد الفارين Transfuges والشيء المؤكد أن نهر النيل يتجه من الغرب إلى الشرق إلا أنه خارج هذه المنطقة ليس هناك أي شخص يمكنه أن يقول شيئا مؤكد بسبب حرارة المنطقة الصحراوية." هيرودوت، **التواريخ**، م س، الكتاب الثاني، الفقرة 33.

[29]- هيرودوت، **كتاب التواريخ**، م س، الكتاب الثاني، الفقرة 191.

[30]- نفسه، الكتاب الثاني، الفقرة 33.

[31]- نفسه ، الكتاب الرابع، الفقرة 183.

[32]- نفسه، الكتاب الرابع ، الفقرة 174.

[33] - شعب من الشعوب الأمازيغية، مزارعون ومربو ماشية.

[34] - قبائل أوروبية رحل تتحرك في المجال الممتد بين بحر آرال وبحر قزوين.

[35] - نفسه، الكتاب الرابع، الفقرة 173.

[36] - نفسه، الكتاب الرابع، الفقرة 172.

[37] - الوزان الفاسي(الحسن)، **"وصف إفريقيا" م س**، ج 1، ص 28.

[38] - نفسه، ص 72.

[39] - نفسه، ص 29.

[40] - نفسه، ص 75.

[41] - الوزان الفاسي(الحسن)، **"وصف إفريقيا"** م س. ص 75.

[42] - نفسه، ص 76.

[43] - نفسه ص 29.

[44] - نفسه، ص 77.

[45] - النفاتي(عادل)، **المجتمع والجغرافيا الثقافية لبلاد المغارب، حفريات في أدب الرحلة**، م س ، ص 151.

[46] - ومن تلك الأخطاء ذكّر الرحّالة اختلاف الجغرافيين حول منبع نهر النيجر التي زعمت المصادر الأوروبية أنه: يشق أرض السودان ويخرج من فلاة تدعى ساوو نابعا من بحيرة عظيمة، وهو فرع من فروع النيل، يغيب تحت الأرض ثم يخرج منها ليكون هذه البحيرة. ويرى البعض أنه ينبع في جبال تقع إلى جهة الغرب، ثم يسيل نحو الشرق ليتحول إلى بحيرة، وهذا غير صحيح: فإننا سرنا في النهر شرقا من تمبكتو واتبعنا مجرى المياه إلى مملكة جني ومملكة مالي، وكلتاهما واقعتان غربي تمبكتو". الوزان الفاسي(الحسن)، **"وصف إفريقيا"**، م س ، ج1، ص 30.

[47] - نفسه، ص 34.

[48] - الوزان الفاسي(الحسن)، **"وصف إفريقيا"**، م س، 34.

[49] - نفسه، ص 35.

[50] - نفسه، ونفس الصفحة.

[51] - نفسه، ص 69.

[52] - نفسه، ص 117.

[53] - النفاتي(عادل)، **المجتمع والجغرافيا الثقافية لبلاد المغارب، حفريات في أدب الرحلة**، م س ، ص 35.

[54] - الوزان الفاسي(الحسن)، **"وصف إفريقيا"** م س، ج 2، ص 176.

[55] - - الوزان الفاسي(الحسن)، **"وصف إفريقيا"** ، ج1، ص 33.

[56] - اعتبر الباحث مايك كرانغ أن المشهد الثقافي هو تشكيل جماعي للأرض على مرّ الزمن، وهو ليس نتاج عمل فردي، بل هو مشترك جماعي يبنى على فترات زمنية طويلة يعكس معتقدات وممارسات وتقنيات مجتمع أو ثقافة ما. ومن هذا الباب يمكن قراءة المشاهد الثقافية كنصوص توضّح معتقدات الشعوب وتاريخها العام والمستويات الحضارية التي بلغتها. كرانغ(مايك)، **الجغرافيا الثقافية**، ترجمة سعيد منتاق، اصدارات عالم المعرفة، الكويت 2005، ص 14.

[57] - Braudel(F), *Civilisation matérielle: économie et capitalisme*, Armand Colin, Paris, 1979.Tome I .P 115.

[58] - كانت صناعة المنسوجات رائجة في عديد المدن والأقاليم الإفريقية، فبالإضافة إلى ازدهارها بحواضر المغارب تحدث ليون الافريقي عن ازدهار صناعة النسيج في مدن بلاد السودان على غرار تنبكتو ومملكة كوبر وبلاد النوبة.

[59] - الوزان الفاسي(الحسن)، **"وصف إفريقيا" م س**، ج1، ص 252.

[60] - ابن خلدون، **المقدمة**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2007. ص 135.

[61] - مارمول كاربخال، إفريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، الرباط 1984، ج 1، ص 100.

[62] - عيسى(لطفي)، **مغرب المتصوفة، الانعكاسات السياسية والحراك الاجتماعي من القرن 10 م إلى القرن 17 م**، منشورات مركز النشر الجامعي بكلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس 2005. ص 575.

[63] - النفاتي(عادل)، **المجتمع والجغرافيا الثقافية لبلاد المغارب، حفريات في أدب الرحلة**، م س ، ص 135.

[64] - الوزان الفاسي(الحسن)، **"وصف إفريقيا" م س**، ج1، ص 232.

[65] - نفسه، ص 276.

[66] - "إفريقيا" هو كتاب في ثلاثة أجزاء من تأليف الكاتب الإسباني "مارمول كاربخال"، انتهى من تأليفه فيما بين سنتي 1571 و1573، كُتب باللغة الإسبانية وطبع بأمر ملكي. نشر الجزء الأول والثاني بغرناطة سنة 1573 والجزء الثالث سنة 1599 بمالقة. وفي خصّوص ترجمة مؤلف "إفريقيا" إلى اللغات الأخرى، فقد أقدم "نيكولا بيير دي بلانكور –*Nicolas Pierre de Blancore*"على ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسية ونشره سنة 1667 في ثلاثة مجلّدات.

[67] - كاتب غرناطي ولد فيما بين 1520 – 1524، شارك في حملة شارل الخامس على مدينة تونس سنة 1535، وأسر فيما بين أربعينات القرن 16 م وخمسيناته من قبل الوطاسيين ثم السعديين في المغرب الاقصى. للمزيد حول هذا الموضوع يمكن العودة إلى النفاتي(عادل)، **المجتمع والجغرافيا الثقافية لبلاد المغارب، حفريات في أدب الرحلة**، م س.